الأميرُ، مهْزومًا

بعدَ أن وصــلــتْ إلى أذنيهِ كلماتٌ لمْ يقدرْ على كتمانها طويلًا، أسـرعَ جنديٌّ شـابٌّ خارجَ المبنى الرئيسـيّ لحصـنهِ، فمرَّ بالسـاحةِ الكبيرةِ التي ملأها الثلجُ معَ حلولِ الليلِ، وانطلقَ إلى الغرفةِ الصــغيرةِ التي اعتادَ الالتقـاءَ فيهـا بزملائـهِ ليتحـدثوا وتشـــاركوا مـا وردَ إليهم مِن أنبـاءٍ عن الحربِ، التي لمْ يشتركوا فيها.

كان كحاملٍ لنبأٍ مثيرٍ متحمسًـا، فرغمَ أنهُ قد سـبقهُ أحدُهم في إعلانِ ســقوطِ عاصــمةِ العدوِّ ونجاحِ الجيشِ في احتلالها، إلا أنهُ حملَ خبرًا مِن نوعٍ آخرَ -خبرًا ينقلُ جزءًا مِن الأحداثِ إلى حيثُ كانوا-.

- «يا جماعة! خبرٌ هامٌّ!».

بحماســهِ خطا إلى داخلِ الغرفةِ، وبحماســهِ دفعَ البابَ ليُحدثَ ضجيجًا يعلنُ وصولهُ، ولكنهُ لمْ يُقابَلْ إلا بتجاهلٍ باردٍ مِن زملائهِ.

جلســوا جميعًا يلعبونَ بكروتِ اللعبِ، ربما متراهنينَ على مَن يبتاعُ لهم مشــروباتٍ فيما بعد، وبالنســبةِ لهم، كانت قيمةُ الفوزِ تفوقُ قيمةَ الاستماعِ إلى الشابِّ ولو للحظةٍ.

- «اســتمعوا! لقد عَرَفتُ كلَّ شــيءٍ عن أمرِ الرســولِ الذي جاءَ مُنذ قليلٍ».

ارتفعت العيونُ إلى المتحدِّثِ للحظةٍ، فرأى الفرصـةَ ليسـرعَ بما لديهِ:

- «في أيّ لحظةٍ الآنَ ستصلُ قافلةٌ، حسْبَما سمعتُ، لإيصالِ سجينِ حربٍ».

وبتلكَ الكلماتِ، وضعَ أكبرُ الجنودِ كروتهُ على الطاولةِ أمامهُ، فانتبهَ الجميعُ.

وتحدثَّ قائلًا: «سجينٌ واحدٌ يا بَدْر؟».

- «واحدٌ فحسب، ولكن ليسَ ذلكَ المدهشَ في الأمرِ... لقد سمعتُ اسمًا يردَّدُ على لسانِ القائدِ».

صاحَ أحدُ الجنودِ: «يجدرُ بكَ أن تتوقفَ عن التنصتِ على غرفةِ القيادةِ أيها الغبيُّ؛ إن لم تفعلْ قد نعثرُ على رأسكَ معلقةً في مكانٍ ما!».

- «فلتستمع في صمتٍ!».

تشاحنَ الجنودُ، وأوشكَ العراكُ أن ينشبَ بينهم، ولكن صبرَ كبيرِهم كان قد نفدَ، فصاحَ: «قلْ ما عندكَ وأرِحْنا!».

- «قاسم الجرَّاح يقودُ القافلةَ بنفسهِ».

بعدَ سماعِ الاسمِ أخذَ الجنودُ ينظرونَ إلى بعضهم بعضًا، وتوالتْ كلماتهم في ريبٍ ودهشةٍ:

- «قاسم الجراح؟ القائدُ بالجيشِ؟».

- «أليسَ هو مَن قادَ الهجومَ الأخيرَ؟ ذاكَ الذي أسقطَ عاصمةَ العدوِّ؟».

- «هناكَ إشاعةٌ أنهُ هو الذي قطعَ رأسَ ملكِ ألْسنْدا في الحربِ: بسيفهِ فصلها عن الجسدِ واحتفظَ بها».

تحدَّثَ كبيرهم ثانيةً: «وما الذي جاءَ بهِ إلى هنا، في هذا التوقيتِ؟».

ظنَّ أحدُ الجنودِ أنَّ لديهِ الإجابةَ؛ فسارع بالقول: «أيمكنُ أن يكونَ عائدًا مِن الحربِ؟».

- «الآن؟ إلى هنا؟ في قافلةٍ؟ أينَ عقلُكَ؟ لا يمكنُ أن يتركَ قائدٌ ميدانَ الحربِ دونَ سببٍ...».

وجدَ الشابُّ حاملُ الخبرِ الفرصةَ ليوصلَ آخرَ ما حملهُ مِن كلماتٍ، فتحدَّثَ بسرعةٍ: «هناكَ جزءٌ أخيرٌ مِن الخبرِ، ولكني لم أستطع التأكدَ منهُ... عن السجينِ الذي ذكرتهُ...».

بعدَ ساعةٍ مِن تلقي الجنودِ للخبرِ المفاجئِ، فُتِحَ بابُ الزنزانةِ الرئيسيةِ بالحصنِ، وتقدَّمَ إلى مرمى بصرِ السجناءِ شابٌّ في الثامنة عشر من العمرِ. كان ذا شعرٍ أسود طويلٍ، غطى عينيهِ السوداويتين وامتدَّ من الخلفِ إلى منتصفِ ظهرهِ، ليتقاربَ ويتباعدَ من ظهره وهو يخطو. وكان ذا وجهٍ أبيض أفسدهُ الغبارُ وتعبُ الطريقِ، فتجمَّعَ شكلهُ الغريبُ وملابسهُ التي نمَّتْ عن الغنى والرفاهيةِ مع الغبارِ وآثارِ السفرِ، ليخلقوا ما جذبَ أنظارَ كلِّ مَن كانوا بالزنزانة.

- «تقدَّم إلى الداخلِ».

ظلَّ الشـــابُّ يرفضُ الإجابـةَ أو التنفيـذَ، وعينـاهُ لا تريـان إلا الأرضَ.

- «عندما تُؤمَر تنفِّذ!».

دفعَ الجنودُ الشـــابَّ إلى الـداخـلِ ليصـــيرَ الوافـدَ الأجـددَ إلى الزنزانـةِ، وليصـــيرَ ألمُ ســـقوطهِ إلى الأرضِ أولَ تحيـةٍ يلقـاهـا في مثواهِ الجديدِ، ثم أُغلقَ البابُ، وأُوصـــدَ بإحكامٍ ليبدأ الســجناءُ في تفقدِ هذا الوافدِ الجديدِ.

ومِن بينهم، تقدَّمَ رجلٌ قصـيرٌ يشـارفُ قصـرهُ أن يجعلهُ قزمًا، فانحنى تجاهَ الشـــابِّ الذي ظلَّ جالسًـــا على ركبتيهِ، وحاول اســـتطلاعَ ملامحهِ التي حجبها شعرهُ عن الجميعِ.

- «يا لكَ مِن شـــابٍّ منحوسٍ... أن ينتهي بكَ الأمرُ هنا دونَ أيِّ مكانٍ».

ظلَّ الشـابُّ سـاكنًا، ولمْ يُبْدِ أيَّ تفاعل أو ردّ فعلٍ تجاهَ مُحدِّثهِ؛ فاسـتمرَّ القزمُ في سـردِ كلماتٍ كثيرًا ما قالها لأمثالهِ مِن الوافدين الجددِ -رغم نُدْرتهم-: «عزيزي الصـــغير، أنتَ في حصـــنِ نُدْفَةِ الثلجِ. مَن يدخلهُ يلقى مصـيرًا مِن اثنين: إما أن يُعدمَ بالصـباحِ في سـاحةِ الحصـنِ، أو أن يُسْجنَ بقيةَ حياتهِ هنا. الأمرُ بسـيطٌ، ولا ثالثَ للاحتماليْن؛ لذلك، دائمًا ما أسـعى أنا وأصـدقائي لمسـاعدةِ الوافدين الجددِ -مَن سـيعيشُ منهم طبعًا-، حتى لا يتعرضـوا لسـوءٍ داخلَ الزنزانةِ...أا، يمكنكَ القولُ إننا نعملُ حتى لا تحدثَ أيُّ (حوادث مؤســفة) داخلَ الزنزانةِ -أنتَ تفهمُ قصدي-».

لمْ يردَّ الشابُّ، فتنهدَ القزمُ وتحلى بالصبرِ أمامَ ما رآهُ وقاحةً مِن الوافدِ الجديدِ، وبدأ في النظرِ مرةً أخرى، بتمعنٍ...

- «*لا يبدو مِن سكانِ إحدى القرى القريبةِ...*».

أخذَ يفكرُ لحظةً، ثم طفتْ بذهنهِ كلماتُ أحدِ الجنودِ -واحدًا مِن هؤلاء الذين رشاهم ليحصلَ على نبأٍ كلّ جديدٍ-، فابتسمَ وقال: «أنتَ ذلك الأميرُ الذي وردَ في الشائعاتِ... (الأميرُ المهزومُ)، أليس كذلك؟ حالُكَ سيئةٌ لدرجةِ أني ظننتكَ شحاذًا! تستحقون ما جرى لكم! رغمَ أني لا شأن لي بالسياسةِ، لطالما كرهتُ ألْسنْدا، خاصةً العائلةَ الملكيةَ وحاشيتها؛ لقد كانَ هناكَ وقتٌ عندما عملتُ لأحدِ عليةِ القومِ بألْسنْدا، لعنةُ الله على تلكَ الأيامِ! عاملوني كالعبدِ، وعندما طالبتُ بحقوقي، ألفقوا بي تهمةً وأخرجوني مِن البلادِ... والآن انظر كيف تنقلبُ الحالُ! العبدُ وسيّدهُ في زنزانةٍ واحدةٍ!».

استمرَّ القزمُ في الحديثِ، ولكنهُ لمْ يرَ تعبيرَ وجهِ أميرِ ألْسنْدا، فلمْ ينلْ ما طلبهُ مِن شعورٍ بالعلوّ والرضا، وتدريجيًّا، تحوَّلَ ذمهُ لألْسنْدا إلى حنقٍ وغضبٍ وجَّههُ على مَن وقعَ بيدهِ باللحظةِ -الأميرَ-.

وعندما انتهى، ضمَّ القزمُ يديهِ وطقطقَ رقبتهُ، ثم قال بسخريةٍ: «ورغمَ كلّ ذلكَ، نضمنُ لكَ بقاءً سالمًا إن دفعتَ الثمنَ الملائمَ».

لمرةٍ أخرى، لمْ يُجِب الأميرُ، فعضَّ القزمُ على شفتيهِ وأوشكَ أن يخسرَ صبرهُ، ولكنهُ لمحَ شيئًا صغيرًا يلمعُ بيدِ الأميرِ اليسرى، فقال: «نقبلُ هذا الخاتمَ عوضًا إن شئتَ».

بلا إجابةٍ، فاضَ بالقزمِ الكيلُ، فنثرتْ عروقهُ، وتقدَّمَ فأخذَ بثيابِ الأميرِ مِن قبلِ عنقهِ، ورفعَ رأسهُ ليرى لأولِ مرةٍ وجههُ، ثم أخذَ

يصيحُ في ظلِّ الصمتِ الذي حلَّ بالزنزانةِ كلها: «أمثالكَ مِن المتعجرفين نهايتهم بيدِ أمثالي؛ الطاولةُ مقلوبةٌ هنا، فلا تظنَّ أن بيدكَ شيئًا: إما أن تدفعَ الثمنَ أو تتحمَّلَ العواقبَ. إن كانت كلُّ ألْسنْدا بحقارتكَ، فهي تستحقُّ ما يحدثُ لها—».

لأولِ مرةٍ ركَّزتْ عينا الشابِّ على القزمِ، واندفعَ كفُّهُ ليسدِّدَ لكمةً إلى وجههِ، طرحتهُ أرضًا وجعلتهُ لا يُنهي كلامهُ، وتأزَّمَت الحالُ داخلَ الزنزانةِ؛ فأسرعَ مساعدو القزمِ للتدخلِ.

- «كيف تجرؤ على فعْلِ ذلك بالزعيمِ؟».

- «سأذيقكَ الموتَ!».

وتراجعَ جميعُ مَن لمْ يكنْ لهم شأنٌ خائفين مِن عاقبةِ الوقوفِ في وجهِ أحدِ الغشماءِ العميّ الذين اندفعوا. ورغمَ هذا الخوفِ، فإنَّ عراكًا يليقُ بهِ لمْ ينشبْ؛ بعدَ ضربهِ القزمَ، عادَ الأميرُ إلى حالتهِ مِن اللاوعيِ بما يحدثُ حولهُ، حتى وصلَ أولُ المهاجمين وسدَّدَ أولَ ضربةٍ إليهِ، وحينها سقطَ إلى الوراءِ ضعفًا، وبنهايةِ الأمرِ صارَ ككيسِ الرَّملِ يتقاذفونهُ فيما بينهم ويتناوبون في ضربهِ، إلى أن سقطَ مغمًى عليهِ وسطَ أصواتِ ضحكٍ ووعيدٍ.

جلسَ قائدُ الحصنِ على مكتبهِ الخشبيّ بأعلى أدوارِ المبنى الرئيسيّ للحصنِ، وجلسَ أمامهُ رجلٌ ضخمٌ عرَّف نفسهُ منذ لحظةٍ كقاسم الجرَّاح، وأوشكَ على البدءِ في حديثٍ عدَّهُ مهمًا، لولا أن جاءَ طرْقٌ على البابِ وإذنٌ بالدخولِ.

- «سـيـدي، جئـتُ أبلغُ، السـجينُ متحفظٌ عليـهِ بـالزنزانـةِ الرئيسيةِ، أمِن أوامر أخرى؟».

أجابَ قائد الحصنِ: «لا، يمكنكَ الذهاب».

ولكن قبل أن يُغلقَ البابُ ثانيةً، جاءَ صـوتُ قاسـم الجراح، صوتًا عاليًا أجشًّا، قائلًا: «جهّزوا منصةَ الإعدامِ للغدِ».

ارتبـكَ الجنـديُّ قليلًا وحوَّلَ نظرهُ إلى قـائـدِ الحصـنِ فوجـدهُ مسـتسـلمًا لكلماتِ قاسـم، فسـارعَ بالردِّ: «أمركَ سـيدي!»، وانسـحبَ في صمتٍ مِن أمام الاثنين، غالقًا البابَ.

- «منصةُ الإعدامِ؟ لمْ أسمعْ بهذا مِن قبل».

اعتدلَ قاسم في كرسيهِ ونظرَ إلى قائدِ الحصنِ في ضيقٍ بكلماتِهِ. وبذلكَ الضيقِ، بدا قاسم الآن أمام القائدِ أطولَ مِن ذي قبل وأكثرَ رعبًا مِن الشخصيةِ التي ذُكرَ لهُ وصفها مِن قبل. كان قاسم يفوقُ المترين في طولهِ، وعلى وجههِ كانت آثارُ المعاركِ الطويلةِ، منها ندبةٌ على عينهِ اليسرى، نجت العينُ مِن مُحْدِثِها بأعجوبةٍ، وبشعرهِ الأسودِ كانت بضعُ خصلات بيضاء تتحدَّثُ عن خبرةٍ طويلةٍ، أما عيناهُ فحملتا حزمًا يصيرُ مع خلقهِ الشديدِ قسوةً.

ثبتَ بدرعهِ العظيمِ في كرسيهِ كمَن يكظمُ غيظًا، ثم قالَ: «الآن سمعتَ».

- «هل لي أن أفهمَ؟ ما فائدةُ إحضارهِ إلى هنا إن كانتْ نهايتهُ أن يعدمَ؟».

- «التحضيرُ للإعدامِ إجراءٌ وقائيٌّ».

-«كيف؟».

- «أنتَ تعلمُ، ملكُ ألسندا ماتَ، والعاصمةُ سقطتْ، ولكن كلَّ هذا لمْ يمنع الألسنديين مِن المقاومةِ. والظاهرُ لنا أن وجودَ الأميرِ -حتى وإن كانَ قد فقدَ شعبيتهُ- كورقةِ مساومةٍ مهمٌ؛ لذلك قررَ القائدُ الأعلى -سموهُ ابن الإمبراطور- أن يُرسِلَ الأميرَ سجينًا إلى العاصمةِ، وأرسلني مع بضعِ جنودٍ فقط، واثقًا في أني سأنجزُ المهمةَ».

- «والمهمةُ إعدامهُ؟ كورقةِ مساومةٍ؟!».

غضبَ قاسم قليلًا، ولكنهُ كتمَ الغضبَ وأكملَ: «قبل تحرُّكِنا مِن ألسندا، بعثَ سموُّهُ برسولٍ إلى عاصمةِ الإمبراطوريةِ يطلبُ إمداداتٍ لتساعدَ في نقلِ السجينِ، وحدَّدَ نقطةَ التقابلِ في هذه القلعةِ. ولكن منذ يومين، بدأتُ أشعرُ أن أحدًا يراقبُ تحرُّكاتنا ويتبعنا... وأنا أكرهُ التردُّدَ، وأكرهُ ألا أستطيعَ تنفيذَ مهمتي، خاصةً إن كانتْ مِن ابن الإمبراطورِ جلالته؛ لذلك، كإجراءٍ احترازيٍّ، إن لم تأتِ الإمداداتُ غدًا، سيُعدمُ الأميرُ».

أطرقَ قائدُ الحصنِ قليلًا، وتعجَّبَ مِن تطابقِ عنادِ الرجلِ أمامهُ مع العنادِ المشاعِ عنهُ، وبالنهايةِ أخذَ يتحرى حكمةَ كلماتهِ، فوجدَ بها تناقضًا واضحًا، وقال: «وإن أُعْدِمَ، ألن تفقدَ ورقةَ المساومةِ؟».

- «أنا لا أحققُ المستحيلَ. إن هاجمتْ قوى المقاومةِ هذا الحصنَ الآن، هل تستطيعُ الدفاعَ عنهُ بعددِ الرجالِ الذي تمتلكهُ؟».

- «لا...».

- «قد تعبرُ الحدودَ وتهجمُ في أي لحظةٍ؛ لذلك وضعتُ صباحَ الغدِ كحدٍّ أقصى، إن لمْ تصل الإمداداتُ كما هو متوقعٌ، فلن أجازفَ».

لمْ يرضَ قائدُ الحصنِ، ظانًا بأن قلقَ قاسم ليس بالمبررِ، ولكنهُ خشِيَ أن يتحدثَ بما في قلبهِ أمام الرجلِ العملاقِ، ففي النهايةِ، كقائدٍ للحصنِ لم يمتلكْ خبرةً أو سلطةً لينصُرَ رأيًا، وانتهى بالقولِ: «إذن يُعْدَمُ غدًا».

أضافَ قاسم: «غدًا صباحًا في ساحةِ الحصنِ أمام أعيننا، طبعًا بالقليلِ مِن الإذلالِ إن أمكنَ... أن أعودَ برأسهِ مع رأسِ أبيهِ قد يغفرُ لي قليلًا».

في هذا العالمِ الغلبةُ للقويِّ: الدولُ تُبنى وتُهدمُ، ولا يبقى إلا القويُّ قائمًا. أما الضعيفُ فيسعى وراء اكتسابِ قوةٍ تحفظهُ مِن أن يُسْحَقَ تحت أقدامِ الأقوياءِ. وفي نفسِ الوقتِ، يتشاركُ القويُّ مع الضعيفِ، سواءً، في السعي وراء الواردِ الطبيعيةِ التي في بعضِ الأحيانِ تحددُ الأقدارَ. ولكن ما هي القوةُ؟ وما هو الضعفُ؟ لا يعلمُ الكثيرون إجاباتٍ لهذين السؤالين إلا بعد فوات الأوان.

وفي هذا العالمِ القاسي والجميلِ...

في عامِ ١٤٠٧ مِن النتيجةِ المقدسةِ، أعلنتْ إمبراطوريةُ دِيمِنْتِيَا الحربَ على مملكةِ ألسندا المجاورةِ لها. بلا سببٍ لتبريرِ أفعالها، اجتاحت الإمبراطوريةُ جنوبَ ألسندا واستولتْ على مناجمِ الجِيمَاتَيْت -أهمَ الواردِ الطبيعيةِ في هذا العالمِ، والذي يستخدمُ في صناعةِ أسلحةٍ متطورةٍ في هذا العصرِ القديمِ- وبقوتها الحربيةِ الكاملةِ، زحفتْ جيوشُ ديمنتيا تجاهَ عاصمةِ ألسندا.

حاولتْ جيوشُ ألسندا التصدي للتعدي، ولكنها انهزمتْ بسرعةٍ...

في نهايةِ عامِ ١٤٠٨، انهزمَ آخِرُ جيوشِ ألسندا، وسقطت العاصمةُ في يدِ القائدِ الأعلى -ابن الإمبراطور الديمنتي-. وبسقوطِ العاصمةِ، لمْ يعدْ هناك مَن يدافعُ عن ألسندا غير قوى مقاومةٍ مبعثرةٍ وضعيفةٍ، اتخذتْ مِن الأريافِ والغاباتِ ملاذًا لها. وفي ذاتِ الوقتِ، بدأتْ إمبراطويةُ ديمنتيا تحاولُ محوَ سلطانِ العائلةِ الملكيةِ مِن الوجودِ، فقُتِلَ ملكُ ألسندا في الحربِ، وتقررَ استغلالُ الأميرِ والأميرةِ فيما يخدمُ مصالحَ ديمنتيا السياسيةِ.

والآن في بدايةِ عامٍ جديدٍ، تبدأ قصةُ السنواتِ التي تبعتْ سقوطَ ألسندا، تبدأ بمجموعةٍ مِن أشخاص حملوا على أكتافهم قدرَ ومستقبلَ ألسندا، ووقفوا ندًّا للإمبراطوريةِ الديمنتيةِ -أقوى دولة في العالمِ في ذلك الوقتِ-... كأملِ ألسندا الوحيدِ...

قصةُ ليون -الأمير المهزوم- تبدأ الآن...